التاريخ السياسي والنمو الديموغرافي وأثرهما على التطور العمراني لمدينة الجزائر من القرن 4هـ / 10م إلى القرن 13هـ/ 19م.

Political history and demographic growth and their impact on the urban development of the city of Algiers

الدكتور موشموش محمد
جامعة المسيلة
الجزائر
mohamed.mouchmouche@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2019/08/27 تاريخ القبول: 2019/12/21 تاريخ النشر: 2021/06/28

ملخص:

تأثرت مدينة الجزائر بجميع الأحداث التاريخية التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا من القديم إلى الحديث، ففي حالة السلم عرفت المدينة تطورا عمرانية واستقطابا كبيرا للمجموعات البشرية سواء البدوية أو الحضرية، ورغم أنه في الفترة الإسلامية في العصر الوسيط سكنتها قبيلة بني مزغنة الصنهاجية وضربت بها الخيام، إلا أن ذلك لم يدم طويلا حيث مصرها بلكبن بن زيري الصنهاجي، ومن تلك الفترة شهدت المدينة توسعا عمرانيا لم يتوقف إلى غاية العصر الحديث، حيث أضاف حكامها في الفترة العثمانية الكثير من المنشآت المعمارية منها الدينية والعسكرية والمدنية، هذا ما شجع الساكنة على الاستقرار بها وقدوم مجموعات بشرية سواء محلية وأجنبية إليها، ولعل من أعظم الهجرات التي عرفتها مدينة الجزائر هي هجرة الأندلسيين مع مطلع القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد، حيث استفادت المدينة من التراكم الحضاري للأندلسيين في جميع مناحي الحياة، وطبعوها بطابع أندلسي حتى أصبحت تسمى بلاد الموريسكين. كما اندمج مع السكان المدينة العديد من الأسرى الأوروبيين، خاصة ممن اعتنقوا الدين الإسلامي. إن هذا التنوع البشري كان إيجابا على المدينة علميا وعمرانيا.

كلمات مفتاحية: مدينة الجزائر.، الدولة العثمانية.، المغرب الإسلامي.، العمران.، القصبة.، التوسع العمراني.، المسجد.، خير الدين.

Abstract:

The city of Algiers has been influenced by all the historical events in North Africa, from the ancient to the modern, where it has experienced urban development and a major

polarization of human, nomadic and urban groups, and even though Islamic era, the tribe of BeniMzaghna was long inhabited. The city experienced an urban expansion that lasted only until the modern era, when its Ottoman rulers added many architectural structures, including religious, military and civil, which encouraged the inhabitants to live. to install and upon arrival of groups. Mortal One of the greatest known migrations of the city of Algeria is that of the Andalusia's, where the city has benefited from the accumulation of Andalusia civilizations in all fields. Many European prisoners, especially those who converted to Islam, were merged with the residents of the city. This human diversity has been positive for the city, both scientifically and architecturally.

Keywords: Algiers, Andalusia's, BeniMzaghna, city, expansion, historical.

مقدمة:

عرفت منطقة شمال إفريقيا ظاهرة بناء المدن منذ الفترة الفينيقية حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، ثم استفاد الرومان ومن بعدهم البيزنطيينمن فن البناء الفينيقي، وأسسوا مدن على أنقاض وأطلال المدن القديمة.

خلال الفترة الممتدة من القرن التاسع قبل الميلاد إلى غاية القرن الخامس للميلاد تأسست عدة مدن على الساحل الممتد من مدينة عنابة (Hipon) إلى غاية ميناء مرسى الكبير (Portus magnus)، ليستفيد من هذا الحراك العمران السكان المحليون في الفترة الإسلامية، حيث أسسوا عدة مدن بالمغرب الأوسط على غرار المغربين الأدنى و الأقصى، حيث أنه من بداية القرن الثالث للهجرة ظهرت مجموعة من التجمعات السكنية بنيت على طراز المدن الإسلامية منها: مدينة تنس وهران وأشير ومليانة والمدية والجزائر، هذه الأخيرة لم تؤسس على أطلال المدن القديمة ولكنها استفادت من التراكم الحضاري الذي عرفته واكتسبته المدينة من الفترة الفينيقية عمرانا واستعمالا لمواد وعناصر البناء، ولكنها اصطبغت بالنمط الإسلامي على غرار جميع المدن التي شيدت في الفترة الإسلامية مشرقا و مغربا.

إن التطور المعماري الذي عرفته مدينة الجزائر منذ تمصيرها راجع أساساإلى وفود مجموعات بشرية حضرية ساعدت على نمو المدينة ديموغرافي وأثرت كذلك على عمران المدينة تخطيطا وعمارة وفنا وتخطيطا.

يهدف هذا البحث إلى التعريف بخصائص المدينة الإسلامية في نشأتها وتطورها، وذلك من خلال طرح الإشكالية التالية:

- ما هي عوامل نشأة وتطور مدينة الجزائر في الفترة الوسيطة والحديثة؟

- هل تأثرت المدينة بالأحداث السياسية التي مر بها المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا؟
- ما هي التركيبة البشرية لمدينة الجزائر في الفترة العثمانية؟ وما هو أثر التوافد الأندلسي عليها؟
- ما هي الأسباب التي شجعت النمو الديموغرافي لمدينة الجزائر؟
- ما هي خصائص التطور المعماري الذي عرفته المدينة؟

1.التاريخ السياسي لمدينة الجزائر:

إن المتصفح للمصادر التاريخية للمغرب الإسلامي يلاحظ أن المدن الساحلية العتيقة لم تذكر في القرون الثلاثة الأولى للفتح الإسلامي للمغرب، على غرار مدينة الجزائر، وهذا ليس بغريب إذا علمنا أن الجيش الإسلامي في فتوحه للمغرب الإسلامي كان يسير بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي أي عبر منطقة السهوب، ويبدو أنه تفادى المدن الشمالية لصعوبة مسالكها من جهة وتمسك سكانها بالعادات وتقاليد المكتسبة من جراء الاحتكاك بالحضارة الرومانية والبيزنطية عكس القبائل البدوية التي تقبلت الإسلام منذ العمليات الأولى للفتح الإسلامي.

كما لم تطلعنا على السنة التي دخلت فيها المدينة تحت راية الإسلام، وهذا ما يجعلنا نتساءل هل المدينة "الجزائر" كانت من مضارب قبيلة زناته أو صنهاجة؟ والأقرب إلى ذلك يبدو أنها أراضيها كانت صنهاجية،وكذلك عبر تاريخها الإسلامي كانت دائما تابعة "لصنهاجة "الحضر أو البدو.

1.1. مدينة الجزائر في الفترة الزيرية:

يرجع أول تعريف جغرافي لمدينة الجزائر إلى أواخر القرن (4هـ / 10م)،نصادفه عندا بن حوقل حيث يقول: (وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سيف البحر أيضا وفيها أسواق كثيرة.... ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجؤوا إليها فكانوا منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه) (ابن حوقل، 1992، ص78.)، وهذا دليل على أنه لم تظهر أهميتها إلا في عصر الدولة الزيرية و الحمادية ،ومن قبل إما خربت أو كانت بلدة صغيرة، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله:(... ثم اختط ابنه بلكين بأمر هو على عهده مدينة الجزائر المنسوبة إلى بني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة... ومدينة لمدونة، وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط...) (عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص.204).

وحسب دوفو فإن لفظ اختط الذي استعمله ابن خلدون لتأسيس مدينة الجزائر يقصد به أن أعمالا لبناء كانت قائمة على أرضية خالية من المباني أو غير آهلة على الأقل فيقسمها الأكبر، أي أن المدينة خربت وهجرت لفترة من الزمن(راجعي زكية، 2007، ص.9)، ويبدو ما ذهب إليه دوفو صحيح إذا ما نظرنا إلى التعريف اللغوي لمصطلح خِطة، حيث يشير ابن منظور إلى تعريف كلمة خِطة بقوله: (...و الخِطة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك. و قد خطها لنفسه خطا واختطها: وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها دارا، ومنه خِطط الكوفة والبصرة. و اختط فلان خِطة

إذ ا تحجر موضعا وخط عليه بجدار وجمعها الخطط... والخطة بالكسر: الأرض. والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليت حجرها ويبني فيها...)(ابن منظور جمال الدين،2003، ص.106).

ومن خلال التعريف اللغوي للمصطلح يبدو أن بلكين اختط فعلا مدينة الجزائر في القسم العلوي، والذي عرفت فيما بعد بالقصبة القديمة، حيث كانت أرض عذراء لا عمارة فيها، أما المجموعات البشرية التي وجدها بها فيبدو أنها كانت تسكن بين بقايا الآثار البيزنطية حيث ضربت الخيام، وهذا شأن المدن الساحلية بعد خروج البيزنطيين منها، وأمثلة على ذلك كثيرة. (محمد موشموش،2009، ص.15).

ويظهر أن اختيار بل كين لهذا الموقع لتأسيس مدينة دليل على وجود العديد من مواد البناء أعيد استعماله الإقامة المدينة الجديدة،فلا جرم أنه بعد هجرة مدينة بقيت بعض الآثار مبعثرة في المنطقة،كما يحتمل أنه لا يمكن أن تقام مدينة في مكان خال بصفة كاملة من السكان فجمال المنطقة،واعتد الجوها، ووجود ميناء طبيعي بساحلها قد يكون جلب العديد من الأسر،وربما من بين هؤلاء السكان قبيلة بني مزغنة، التي لا يمكن تحديد الفترة التي استقرت فيها ولكن من المحتمل جدا قبل التأسيس،استقرت بين الآثار القديمة، تمثلت الأعمال التي قامبها بلكينفيت مصيرها، وحسب ما أشار إليه ابن خلدون حين تحدث عن عمر ان أهل إفريقية والمغرب بأن أكثره مبدويا يسكن ون الخيام سواء رحل أو مستقرين،كما كانوا يقيمون الأكواخ ظواعن وكنن،لذلك اضطرب لكين إلى تخطيط المدينة لاستقرار السكان.

ونظر الطول الفترة الزمنية التي بقيت فيها المدينة مهجورة اختير اسمها نسبة إلى الجزر التي تقع أمام المدينة على بعد رميسهم منها،والقبيلة التي بالمنطقة،فأطلق عليها جزائربني مزغنة أما في ما يخص تأريخ التأسيس فيشير ابن خلدون إلى أن وفاة زير يبن مناد سنة (360هـ/ 970 م)،وقددا محكمه ستة وعشرون سنة،وفي هذه الفترة أذن لابنه بتأسيس المدينة ومن المحتمل في الفترة الأولى من حكمه ويمكن تحديدها في سنة (339هـ/95 م) خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي (راجعي زكية، 2007، ص.9).

يبدو أن المدينة التي أقامها بلكين بدأت تظهر أهميتها بحيث جلبت الأنظار لذلك أشار إليها ابن حوقل بقوله: (وجزائر بن مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا،وفيها أسواق كثيرة، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها...) (ابن حوقل، 1992، ص.78)، كما أشار إليها المقدسي بقوله: (وجزيرة بني يفناية (هكذا)على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس ولهم عيون...)(المقدسي، 1877، ص.228).

وما يؤكد على توسع المدينة الإسلامية كان على أنقاض المدينة الرومانية ما ذكره البكري: (...ومنها إلى مدينة جزايربني مزغنى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول وآزاج محكمة تدلع لى نها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور

الحيوان ... وكانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور) (أبو عبيد البكري، 1857م، ص. 66).

إن ما ذكره البكري وغيره من الجغرافيين أكدته الشواهد الأثرية المكتشفة في مدينة الجزائر أثناء القيام بحفرية الوقائية برمجت في ساحة السلطة (ساحة الشهداء)، حيث اكتشفت بقايا كثيرة لألواح فسيفسائية ذات زخرفة حيوانية في غالبيتها، وذلك سنة 2010م.

ويقول محمد بن عبد القادر الجزائري: (...ومن مدنها الشهيرة الجزائر،وهي مدينة على ساحل البحر اختطها بلكين بنزيري الصنهاجي ،وكان يتردد إليها من منازله بالمسيلة،ونزلها بنوه من بعده،ثم اختص تبين يمزغنانب طنمن صنهاجة،وبهم اشتهرت.....ولما عقد إسماعيل المنصور العبيدي لزيري بن مناد الصنهاجي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة على بلاد تاهرت وبلاد شلف،عين ولده بلكين لولاية الجزائر ومليانة والمدية وغيرها،فاستوطنها واهتم بشأنها،واجتهد في عمرانها فأخذت في الحضارة والتمدن حتى اشتهرت وطار ذكرها في الآفاق ...)(محمد بن عبد القادر، 1903، ص.16).

2.1. مدينة الجزائر في الفترة الحمادية:

وعند تأسيس الدولة الحمادية بالقلعة (398هـ - 547هـ/ 1008هـ - 1152م) دانت مدينة الجزائر لها، ولكن لم تطلعنا المصادر التاريخية عن أسماء الولاة من هذه الدولة، إلا ما ذكره عبد الرحمن بن خلدون حين تعرضه لأحداث السياسية التي شاهدتها هذه الدولة أيام أميرها الناصر بن علناس بن حماد (454هـ – 481هـ/ 1062م- 1089م)، حيث أشار أنه عقد على الجزائر ومرسى الدجاج لابنه عبد الله، كما أشار ابن خلدون أن المنصور بن ناصر (481هـ- 498هـ/ 1089م-1104م) عين ابنه العزيز على المدينة ثم عزله أخاه باديس عند توليه أمر الدولة الحمادية (498هـ/1104م) و نفاه إلي مدينة جيجل. وفي عهد يحيى بن العزيز أخر أمراء الدولة الحمادية (515هـ-547هـ/ 1121م-1152م) عين أخاه القائد على مدينة الجزائر إلى غاية دخول الموحدين إلى المدينة سنة (543هـ/ 1148م)(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص.204).

3.1. مدينة الجزائر في الفترة المرابطية:(448 – 541 هـ /1056– 1145م).

ظهرت بالمغرب الأقصى الدولة المرابطية واتخذت من مراكش عاصمة لها، وعند فتحها للمغرب الأوسط على أيام أميرها يوسف بن تاشفين سنة (474هـ/1081م). دانت مدينة الجزائر لهذه الدولة، ولكن دخلت الدولة الحمادية في صراع مسلح معها، ففي عهد المنصور بن ناصر جهز جيشا قوامه عشرين ألف متكون من رجال عرب الأثبجوز غبة وربيعة، وكافة صنهاجة، وأمم من زناتة وغز بهم مدينة تلمسان، ودوخ المغرب الأوسط، وكان ذلك سنة (476هـ/ 1083م)(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص.204).ولاشك أن بناء المرابطين للمسجد الجامع بالمدينة كان خلال هذه الفترة.

4.1. مدينة الجزائر في الفترة الموحدية:

وفي سنة (555ه/ 1160م) نزلها أمير دولة الموحدين عبد المؤمن بن علي، فجاءت العرب لمبايعته، وفد عليه أميران منهم لذلك العهد أبو الجليل بن شاكر أمير الأثبج، وحباس بن هشيفر من رجالات جشم، فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما ومضى لإعادة فتح بجاية وإفريقية.(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص.204).

لم تسلم مدينة الجزائر من الصراع الذي نشب بين الدولة الموحدية وبني غانية في أواخر القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد، حيث تطلعنا المصادر التاريخية أن علي بن محمد بن غانية زحف على مدينة الجزائر وعاث فيها فسادا، وولى عليها يحيى بن أبي طلحة، فثار عليه سكان مدينة الجزائر، وأيدوا الجيش الموحدي بقيادة أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وزحف الموحدون على المغرب الأوسط ومدينة الجزائر، وألقي القبض على أميرها يحيى بن أبي طلحة، وأخرجوه إلى قسنطينة.(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص.204).

ولاشك أن المدينة على غرار المدن الموحدية الأخرى عرفت ازدهار او تطور أكان له تأثير في توسع عمرانها،وقد بلغت أوجها في عصر الدولة الموحدية،في صفها الإدريسي في القرن (6ه/12م) كما يلي: (... الجزائر لبن يمزغنا سبعون ميلا.ومدينة الجزائر على ضفة البحر، وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة،وأسواقها قائمة، وصناعاتها نافقة،ولها بادية كبيرة، وجبال فيها قبائل من البربر، وزراعاتهم الحنطة والشعير،وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم، ويتخذون النحل كثيرا،فلذل كالعسل والسمن في بلدهم كثير او ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهما لمتباعدة منهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة.) (محمد الإدريسي، دون تاريخ الطبع، ص.258).

نستخلص من وصف الإدريسي أن سكان المدينة كان و ايعتمد ونعلى الزراعة وتربية المواشي ،أي أنهم كانوا يستغلون السهل المتيجي والأراضي المجاورة للمدينة،بالإضافة إلى اعتماده على التجارة إذ كانوا يصدر ونبعض المنتجات مثل العسل،أي أن ازدهار المدينة يعود أيضا بارتباطها بالبحر،وهذ ايدعونا إلى الاستنتاج أن المدينة كانت أكبر مما كانت عليه سابقا، وتوسعت نحو الجبل أي الداخل، كما أثبتت الدراسات الأثرية التي قامها دوفو عند دراسته لعقود ملكية ترجع إلى بداية العهد العثماني،أن توسع المدينة العثماني كان على حساب ملكيا تقديمة كانت تقع خارج أسوارها التي أقيمت قبل الفترة العثماني(راجعي زكية، 2007، ص.9).

5.1. مدينة الجزائر من القرن (7ه/ 13م) إلى القرن (10ه/ 16م):

سقطت الدولة الموحدية سنة (669ه/ 1269م)فانقسم المغرب الإسلامي إلى دويلات وهي:بن ومرينفي مدينة فاس،وبنو عبد الواد في مدينة تلمسان وبن وحفصفي مدينة تونس،ودخلت هذه

الدويلات في صراع في ما بينها لمدح دودها،وخضعت مدينة الجزائر للزياني ينتارة وأخرى للحفصيين،وفي سنة (598هـ/ 1201م)دخلت في حوزة بني حفص سلاطين افريقية،ثم صارت لبنيزي ان ولمتزلوطن البني مزغن ان خلفا عن سلف(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ج6، ص.186).

وفي القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد بسطت قبيلة الثعالبة يدها على سهل المتيجة، بعد أن نزلت به تحت إي آلة ملكيش فرع من فروع قبيلة صنهاجة التي أذهب المرني يون ملكهم على هذا البسيط. وفي حوالي سنة (750هـ/1349م) دخل أبو الحسن المريني مدينة الجزائر فوجد أميرها أبي الحملات بن عائد بن ثابت قد هلكه مرض الطاعون، فولى على المدينة وقبيلة الثعالبة إبراهيم بن نصر(عبد الرحمن بن خلدون، 2000 ، ص.204).

وفي سنة (760هـ/ 1358م) أثناء الصراع الذي كان بين أبي زيان وأبي حمو موسى الثاني كانت مدينة الجزائر تحت إمارة الثعالبة وشيخها حينئذ سالم بن إبراهيم بن نصر، فبايع أبي زيان ونصبه بالجزائر، فزحف أبو حمو موسى الثاني على المدينة سنة (779هـ/1377م) وتقبض عليه في جبال متيجةونقله إلى تلمسان وقتل هناك(مبارك الميلي، 2011، ص.715).

تأثرت مدينة الجزائر بالأوضاع السياسية التي شاهدتها منطقة المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خاصة، فأصابها ما عانت منه مدينة تلمسان الزيانية، حيث تقلبت تحت راية الدولة الزيانية تارة، وتحت مظلة الدولة الحفصية تارة أخرى، خاصة بعد موت أبي فارس عبد العزيز الحفصي سنة (837هـ / 1433م)(عبد الحميد حاجيات، 1984، ص. 431).

ومع بداية القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد استسلمت المدينة لأمير بجاية لقربها من مملكته،ولعدم قدرة ملك تلمسان على إنجادهم فبايعوه وأدوا إليه الخراج، لكنهم بقوا تقريبا متحررين، وبعد دلك سلحوا السفن و تحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر اليابسة وميورقة ومنورقة، وحتى شواطئ إسبانيا، لذلك أرسل الملك الكاثوليكي فردناند الخامس أسطولا عظيما لحصار الجزائر بقيادة الكونت بيير نفارو القائد العام الأكبر للأسطول الإسباني سنة (915هـ/ 1510م)، وكلف قائد أسطول البحر المتوسط ديي كودي فيرا بتشييد برج ألبي نيون وهو قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماما للمدينة وقريبة منها، بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة وتمر فوقها من سور إلى سور(مبارك الميلي، 2011، ص.43).

وكان بمدينة الجزائر في تلك الفترة زعيم الأعراب القاطنين بسهل المتيجة وهو سليم التومي من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من المعقل، تأمر على مدينة الجزائر عندما احتل الأسبان مدينة بجاية سنة (915هـ/ 1510م) واستقر بها لعدة سنوات، ونتيجة لهذا الحصار الغير مباشر الذي فرضه الأسبان على مدينة الجزائر اضطر أعيان المدينة وسكانها إلى إيفاد سفارة إلى إسبانيا تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج فقبل الملك ذلك وعاشوا في السلم بضعة أشهر (مبارك الميلي، 2011، ص.43).

6.1. مدينة الجزائر في الفترة العثمانية:

توفي فردناند الخامس سنة (922هـ/ 1516م)، فخلع سكان الجزائر الهدنة كي يتخلصوا من الخراج الذي كانوا يوأدون هل أسبانيا(حليم ميشال حداد، 1999، ص.118)، فأرسلوا إلى عروج بربروس(حسن الوزان 1983، ج2، ص. 38) ليكون قائدا لهم نظرا لما سمعوا عن حنكته الحربية في مواجهة النصارى في أعالي البحار بالحوض الشرقي للمتوسط ثم غربه(نور الدين عبد القادر، 1968، ص. 200).

لما قدم عروج إلى مدينة الجزائر سارع في نصب عدد من المدافع تجاه برج ألبينيون، وبعث إلى قائد الحامية الإسبانية يأمره بالاستسلام لكن القائد الإسباني رفض فأطلق عروج النار على البرج ولكن ضعف مدى المدفعية لم يمكنه من الانتصار الساحق ففرض الحصار على البرج، في حين أدى هذا الفشل الغير متوقع إلى النيل من سمعة عروج والأتراك فسقطت هيبتهم في مدينة الجزائر، وبدأت بوادر الفتة تلوح على السطح و لكن عروج خنقها في مهدها و فتك بألد منافسيه في حكم مدينة الجزائر سليم التومي فانفرد به في إحدى حمامات مدينة الجزائر وقتله وبالتالي أصبحت المنافسة السياسية ضعيفة أمام عروج ومن خلاله امتداد الخلافة العثمانية في الجزائر(مبارك الميلي، 2011، ص.41) .

وفي سنة (922هـ/ 1516م) استطاع عروج أن يهزم حملة إسبانية أرسلها الكاردينال كسيم اناس بقيادة ديي غودي فيرا، وبعد هذا الانتصار، وفي سنة (923هـ/1517م) حدثت فتن وقلاقل بمدينة تلمسان بين أمراء الدولة الزيانية، فتوجه عروج إلى مدينة تلمسان بطلب من أعيانها ولكن قدر الله أن تكون هذه المدينة أخر محطة لحياة إسحاق ثم عروج، وذلك في سنة (924هـ / 1518م)(مارمول كربخال،1989، ص.354).

توفي عروج قبل أن يرى الجزائر تحت راية الخلافة العثمانية(أحمد توفيق المدني، 1968، ص. 98)، ومضى خير الدين في حملاته، ورأى أنه لا يستطيع حماية الجزائر إلا بدخولها تحت مظلة السلطة العثمانية(عبد القادر حليمي، 1972، ص. 166)، فأرسل إلى السلطان العثماني بولائه له، فقبل منه ذلك وسماه بايلاربك أي أمير الأمراء(عزيز سامح التر، 1989 ، ص.57)، وأمده بالجند وسفن حربية تدعم بها الأسطول الحربي الجزائري(كورين شوفالييه، 1991، ص. 36)، واستطاع خير الدين في 21 مايو من سنة (936هـ/1529م) أن يحرر الساحل مدينة الجزائر(حمدان بن عثمان خوجه، 2006، ص.230.)، و دمر حصن ألبينون(A. BERBRUGGER, 1860, p.28) ، وبذلك أوقف المد الصليبي الإسباني على مدينة الجزائر.

بتولي حسن باشا بن خير الدين حكم مدينة الجزائر(F.D. HAEDO, 1986, p. 61.)، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاربك مثل أبيه،وكان على شاكلته بطلا مقداما، وفي عهده شن شارل الخامس ملك إسبانيا حملة عسكرية على مدينة الجزائر، بعد أن تم له الاستيلاء على مدينة تونس حيث سولت له نفسه التفكير في مهاجمة مدينة الجزائر و تحرير الأسرى النصرانيين، ومهاجمة جميع مدن الساحل المغرب الإسلامي، وأراد أن يحضر قتالهم بنفسه حتى لا تفشل الحملة كما فشلت سابقاتها، و لهذا السبب حرص على تجهيز جيش بحري كبير مزود بسفن حربية و القاليرات السريعة، ملأها كلها بعدد كبير من الجنود المحنكين الإسبانيين والألمانيين و الإيطاليين، وكذا بالذخيرة و المدافع و بجميع ما يلزم لمثل هذه الغزوات. (محمد بن عثمان المكناسي، 2005م، ص.177).

كانت نقطة انطلاق جيوش النصارى بقيادة الإمبراطور شارل كان من مرسى جزيرة بيكا وأرسى سفنه في خليج مدينة الجزائر يوم 26 أكتوبر من سنة (948هـ/1541م)، ثم وصل الدوق بيرنادين دي ميندوسا ومعه 150 سفينة كبيرة وسفن أخر صغيرة، وشارك في هذه الحملة كذلك الدوق ألب، وكان كبير سادة البيت الإمبراطوري، ويعتبر بعد الإمبراطور قائدا لجميع الجيوش، وقد تقدم في هذا القتال عددا كبيرا من النبلاء والعظماء المرموقين من إسبانيا بسبب تحريض لرجال الدين على ذلك بقيادة الكنيسة.

كان بمدينة الجزائر 800 من الأتراك، معظمهم فرسان، وقد أمر حاكم مدينة الجزائر بأن تعطى العطايا لقبائل الضواحي حتى يشاركوا في القتال، وأمر الجنود بملازمة ثكناتهم، ورتب ما يلزم من الاستعداد. تمكن بعد ذلك الأسبان من معرفة ساحل مدينة الجزائر وتأكدوا أن الإنزال لا يكون إلا من شرق المدينة، وبالفعل بدأت القوات في النزول من جهة وادي الحراش فتصدت لها قوات مدينة الجزائر بغارة مفاجئة، واستطاعوا مضايقة الجيش النصراني العازم على التقدم إلى المدينة سيرا على الأقدام، وفي اليوم الموالي شن حاكم المدينة غارة على الجيش الإيطالي وأوقع فيهم القتل ثم قفل راجعا إلى المدينة عبر باب عزون، وسارت من خلفه بقايا الجيش الإيطالي ولكنهم فروا بسبب النيران التي أطلقها الرماة من أعلى الأسوار. (De Fontaine De Resbecq.A., 1937 , p.93).

بينما كان القتال على أشده في السهل وأمام أبواب مدينة الجزائر كانت الأمواج القوية تهز السفن هزا فتقطعت حبالها، وارتطم بعضها ببعض فهوت إلى قعر البحر غارقة على مرأى من الجيش بأكمله، كما ازدادت الأمطار قوة وتشبعت الأرض بالأوحال وضاقت بالجيش النصراني السبل، فزحفت عليهم القبائل القادمة لمؤازرة مدينة الجزائر وتمكنت من قتل العدد الكبير منهم، وبسبب الظروف المناخية القاسية تراجع الإمبراطور وأن قهر عائدا إلى إسبانيا عازما على تنظيم حملة أخر على مدينة الجزائر. إن هذا الانتصار الذي حققته مدينة الجزائر على الجيش الإسباني والنصراني يعد نصرا لجميع سكان المغرب الإسلامي.

لم تهنأ مدينة الجزائر بنعيم الأمن منذ دخولها تحت راية الدولة العثمانية، ويبدو واضحا لحملها راية الجهاد البحري في غرب المتوسط ضد إسبانيا ومن ورائها العالم النصراني، وكذلك الموقف الشجاع لحكام وسكان مدينة الجزائر اتجاه مسلمين الأندلس، وازدادت حملات العسكرية عليها خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر للميلاد بسبب تقهقر الأيالة الجزائرية هذا ما أدى بالدول الأوروبية خاصة إسبانيا إلى محاولة فرض نفوذها عليها. ومن المحاولات ما قامت به اسبانيا عن طريق دون أنجلو محاولتين حربيتان فاشلتان في سنة (1198ه/أوت 1783م)، وفي سنة (1199ه/ جويلية 1784م)، وكانتا امتدادا لمحاولة أورابي التي فشلت رغم كثرة العساكر (25000 عسكري) التي أنزلها قرب وادي الحراش في سنة (1189ه/ جويلية 1775م)، وانتهت المناورات الحربية الإسبانية بإمضاء عقد صلح سنة (1200ه/ 1785م) بين الجزائر وإسبانيا لصالح الجزائر(محمود مقيدش، 1988م، ص. 95).

2. التنظيم الإداري في الجزائر العثمانية:

1.2. فترة البايات:

عرفت مدينة الجزائر حراك ا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا كبير بدخولها تحت راية الخلافة العثمانية، ومن أجل حفظ أمنها من خطر الغزو النصراني الأوروبي عمد خير الدين على تحطيم حصن البينون،وهذا بعد طرد الأسبان منه سنة (936 ه/152 م)،ويذكر أنه بحجارته أن شئ الرصيف الذي ربطبين الجزر الأربعة واليابس،أي أن المدينة أصبحت مجهزة بميناء، ففي ما مضلم يعتمد سكانها إلا على مينائها الطبيعي،كما اتخذ من المدينة عاصمة للبلاد وأصبح يطلق عليها جزاير الغرب نسبة إلى الجزر الصغيرة التي تتقدم المدينة، كما أطلق واعليها في بعض الأحيان اسم المحروسة ودار الجهاد، كما وضع خير الدين للجزائر العثمانية قانونا ورتب الدواوين، وقدر الرواتب، وخف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية، وهم جند الدولة العثمانية، وكانوا من الأناضول أو من رعياها، وفي الأكثرية كانوا من سبايا أوروبا، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداي، وخطب الخطباء في المدن الجزائرية باسم السلطان العثماني وضربت السكة باسمه، ودامت فترة حكم البايات (أمير الأمراء) إلى غاية (995ه/1587م)، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شؤون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثماني الأعظم، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرقة مجندة من العرب والبربر خاصة من قبائل التل والزواوة. وأقلق استقلالهم السلطة المركزية في الأستانة فرأت أن يتحول الحكم من في الجزائر من حكم الباي إلى حكم الباشا. (أرزقيشويتام، 2009، ص.32).

2.2. فترة حكم الباشوات:

ظل حكم الباشوات حتى سنة (1069هـ/1659م)، وكان الباشا يتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات وربما قصرت بسبب عمليات الاغتيال لذلك عمد معظمهم على جمع الثروات على حساب عامة الناس. وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على الحكم، ولم يعد للباشوات إلى بعض المهام التشريفية إلى غاية سنة (1081هـ/1671م)، واختل الحكم في هذه الفترة، واغتيل الأغوات جميعا،واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين بإسم الدايات، واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالي العثماني يولي منهم أحدا. (أرزقي شويتام، 2009، ص.32).

3.2. فترة حكم الآغوات:

دام حكم الآغوات إلى غاية سنة (1082هـ/1671م)، حيث كان الإنكشاريون يعينون واحد منهم آغا، وفي غالب يصل إلى الآغوية بالأقدمية، أما الذين استلموا الحكم من الباشوات فيعينهم الديوان، وقد تناوب على منصب الآغا أربعة آغوات، وكلهم أغتيلوا لعجزهم عن دفع رواتب الجند، ولأسباب أخرى سياسية، وفي عهدهم الجزائر اضطرابات داخلية، وتعرضت إلى عدة غارات أوروبية، مما جعل طائفة رياس البحر تسيطر على الحكم وتعين أحد أفرادها حاكما على الجزائر، الذي أصبح يعرف بداي. (أرزقيشويتام، 2009، ص.33).

4.2. فترة حكم الدايات:

أصبح الداي الذي ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق في الجزائر، وكانوا يولون ويخلعون حسب أهوائهم، ويستجيب لهم الباب العالي، وفي نفس هذه المرحلة بقيت المساجد الجامعة تدعوا لسلطان العثماني، وتضرب السكة باسمه، وبلغ عدد الدايات إلى غاية الاحتلال الفرنسي (1235هـ/ 1830م) ثمانية وعشرين دايا، اغتيل نصفهم، وكانت سلطة الداي مطلقة يساعده في تسيير البلاد مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته، وهو أشبه بمجلس الوزراء، وكان يتألف من ستة أعضاء: الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية و يشرف على القرصنة، والقابودان وهو قائد الأسطول وجند البحر، والخزناجي وزير المالية، وخوجة الخيل وهو جابي الضرائب، وشيخ المدينة وهو المشرف على القضاء والشرطة، والباشا الكاتب وهو رئيس الديوان، ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف.

وبجانب هذا الديوان يوجد الديوان العسكري ويتألف من رؤساء الجنود ومجلس رياس البحر، ويتألف من قواد البحر، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير، وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضي الحنفي، وكان في أول الأمر يأتي من الآستانة مع الوالي، ويساعده في هذا المجلس قضاة من مذهبي الحنفية والمالكية.

وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى: بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة، وبايلك التطري عاصمته المدية، وبايلك الغرب عاصمته مازونة ثم معسكر منذ سنة (1122هـ/1710م)، ثم وهران منذ

سنة (1207ه/ 1793م) وكان لكلباي سلطة واسعة في ولايته، وكانت صلتهم بالحاكم العثماني في مدينة الجزائر تنحصر في شيئين أساسيين هما: جباية الأموال في ولايته وأداؤها للخزينة العامة،وجمع الجند الذين ينبغي أن يرسل بهم للخدمة في الجيش.(شوقي ضيف، 1995، ص.44).

3. النمو الديموغرافي والتطور العمراني لمدينة الجزائر:

عرفت مدينة الجزائر في العصر الوسيط باسم جزائر بني مزغنة وهذا ما جاءت به جميع المصادر التاريخية والجغرافية التي تناولت المدينة، وهي ما سميت فيما بعد بالقصبة القديمة حيث لا تمثل من المساحة إلا ربع المدينة العثمانية، ففي الجهة الشمالية الغربية كان يحدها مسجد سيدي رمضان الذي يعتبر الأقدم في المدينة، ولعل الخط الطبوغرافي رقم (80) الذي يصادف هذا الموقع هو أدق حد من الجهة العلوية للمدينة(مصطفى بن حموش، 1999، ص.233).

أما من الجهة السفلى فقد ذكر مصطفى بن حموش أن حدود المدينة لا يتعد الشارع الذي كان يربط باب الوادي بباب عزون في الفترة العثمانية أما عن الجهة السفلى فيمكننا اكتشاف من خلال وصف الحاج عصمان لمسجد كتشاوة الذي يرويه Devoulx حيث يذكر أنه في زمن خير الدين كان ذلك الموضع المسطح مهجور منذ قرون وقد كانت فيه أطلال البناءات القديمة ومراع للمعز، ولما استقر الأتراك سموه كجي أوه بمعنى مرعى المعز الذي حرف فيما بعد إلى كجاوة(مصطفى بن حموش، 1999، ص.234).

يقدم لنا البكري وصف للمدينة في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد مفردا فيه المنشآت التي كانت موجودة وموقعها بالنسبة للمدينة بقوله: (...ومنها إلى مدينة جزاير بني مزغنى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها من آثار للأول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما...)(أبو عبيد البكري، 1857م، ص. 66)، كما يصفها عبد الواحد المراكشي بقوله: (... ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر...و تنسب إلى قوم لهم بنو مزغنة...) (عبد الواحد المراكشي، (د ت)، ص. 438).

كما وصفها حسن الوزان الذي زارها في سنة (924ه/ 1518م)، وهذا قبل استقرارها تحت الراية الدولة العثمانية بقولها: (...وهي كبيرة جدا تضم نحو أربعة ألاف كانون، أسوارها رائعة متينة جدا، مبنية بالحجر الضخم، فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص بها، وفيها

كذلك عدد كثير من الفنادق و الحمامات، ويشاهد من جملة بناءاتها، جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر، أمامه ساحة جميلة جدا اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسلفه أمواج البحر، ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه، ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر نصب عليه طاحونات، ويزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى، وفي الضواحي سهول جميلة جدا، لاسيما سهل المتيجة الذي يبلغ طوله خمسة و أربعين ميلا و عرضه ستة و ثلاثين ميلا، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة...)(حسن الوزان 1983، ص. 38).

إن الوصف الذي قدمه حسن الوزان مع مطلع القرن السادس عشر يعبر على ارتباط مدينة اللاجئين التي نظماها تحت عين السلطان بالآستانة، وقد أدى هذا إلى تشبع المدينة في وقت مبكر من العهد العثماني، وقد قدر حسن الوزان عدد سكانها بحوالي 4000 كانون(حسن الوزان 1983، ص. 38)، وقد اعتبر Lespesهذا التقدير بمثابة عدد الدور مما يعني أن عدد سكان المدينة قد يكون ما بين 20 و25 ألف نسمة(مصطفى بن حموش، 1999، ص.233).

وبعد أربعين سنة من وصف حسن الوزان، يصفها مارمول كربخال وصفا دقيقا في القرن العاشر للهجرة السادس للميلاد، وركز في وصفه على المنشآت العسكرية، ومصادر تموين مدينة بالمياه بقوله : (... موقعها على سفح جبل عال: لها أسوار مرتفعة حصينة مبنية بالحجارة و يحيط بها خندق عميق وحواجز من جميع الجهات، ولها أربعة أبواب رئيسية أحدها من جهة الشمال حيث توجد المرسى، وكذا إحدى الجزر التي كانت بها قلعة بنيون، والمرسى اليوم آمن وأكبر مما كان، وذلك بعد أن قام صلاح رايس بربط الجزيرة بالبر بواسطة رصيف حاجز استعمل في بنائه الحجارة المختلفة من بعض البنايات القديمة لمدينة تمانفوست، وترتفع أسوارها شيئا فشيئا فوق التلال، ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد و في قمته قلعة ترى من مسافة بعيدة في البحر، ومن هنالك يصعد على التل إلى الحصن بناه الأتراك على بعد ربع فرسخ من القلعة، وقد جعلوا فيه أربعة مواقع محصنة وثكنة تتسع لألف من الجنود وخزانا كبيرا للمياه يستعمل عند الضرورة، إذ العادة في الأيام العادية أن يكون الاستسقاء من بئر على بعد اثنتي عشرة أو خمسة عشرة خطوة من باب الحصن، وتوجد فوق البستيونات (القصور المخصص لرياس البحر) الحصينة مدافع مصنوعة من البرونز، وفي المدينة حامية دائمة تتكون من الحاكم و من ثلاثمائة من الجنود الأتراك، وبين القلعة والمدينة حصن آخر فيه حامية أخرى، وتبدأ بنايات المدينة من الأسفل عند شاطئ البحر، ثم ترتفع بشكل متدرج على أسفل الجبل، وتتخذ بذلك منظرا جميلا لأنها جميعها ذات نوافذ ومماش، ولا تحجب بعضها البعض، وهي على العموم جيدة البناء، ومن بينها عدة قصور مبنية على هيئة عصرية بدل في رونقها جهد كبير، شيدها رؤساء البحر من الأتراك ومن النصارى المرتدين الذين سكنوا مدينة الجزائر، وساحات المدينة و أزقتها مرتبة منظمة لكل أصحاب حرفة حي خاص بهم، وعلى ساحل البحر

مسجد شامخ رائق يوجد في واجهته رواق ينظر إلى البحر. وجداره الموالي للبحر جزء ممتد على سور المدينة، وتتحطم على أسفله الأمواج، وعلى طول الأسوار تمتد بساتين فيحاء ويشرب أهل الجزائر من عين كبيرة تصل إليهم مياهها بقنوات ممدودة تتوزع على مختلف الجهات، وبالإضافة إلى ما ذكر تتوفر داخل المدينة آبار وخزانات للمياه. والمدينة محصنة من جهة البر بصخور وعرة...)(مارمول كربخال،1989، ص.360).

وفي سنة (1044ه/ 1634م) قدر القسيس دان عدد سكان مدينة بحوالي مائة ألف نسمة، وذلك أثناء الرحلة التي قادته إلى المدينة من أجل فداء الأسرى المسحيين، هو نفس الإحصاء الذي قدمه Laugier De Tassyسنة (1144ه/ 1731م)، أي بعد قرن من الزمن(ناصر الدين سعيدوني، 2000، ص.564).

ومابين رحلتي حسن الوزان والقسيس دان تكون مدينة شهدت ازديادا كبيرا في عدد السكان بقدر أربع مرات،الواقع أن هذه الفترة شهدت أحداث مأسوية بالأندلس انتهت بعملية تهجير جماعي للمسلمين، وذلك ما بين سنتي (1018ه/ 1609م) و (1023ه/ 1614م)، ورغم أعمال التحصين التي أعطت المدينة شكلها المثلثي الواضح كانت قد أخذت مجراها في عهد عرب أحمد، وفي عهده كذلك استفاد الكثير من المهجرين الأندلسيين من قطع أرضية بأمر من الباب العالي، ويذكر الأستاذ مصطفى بن حموش أن أراضي مدينة الجزائرقد استهلكت كليا مع حلول المهاجرين الأندلسيين في أواخر القرن السادس عشر للميلاد أو قبله،وما يؤكد ذلك الحكم الصادر عن الباب العالي الموجه إلى أمير أمراء المدينة مضمونه تحسين معاملة المهاجرين الأندلسيين ومنحهم أرضي مخصصة(مصطفى بن حموش، 2000م، ص.112)، وذلك بتاريخ 19 رجب من سنة (981ه/1573م) متنه كتالي: (تقدم فقراء الأندلس و مدخل بعض حال جاء فيه أن غالبيتهم من الفقراء وأهل العمل، وأنهم غير قادرين على الكسب و العمل وليس لهم حرفة يشتغلون بها، وأنهم يعانون من ضيق العيش نتيجة ذلك. وذكروا بأنه يوجد مخصصات توزع في حالة شغورها إلى أهالي البلاد ويدعون بأنها ليست من حق الأندلسيين أو من حق أعراب مدجر، وبناء عليه فإننا نأمر:بإعطاء تلك المخصصات في حالة توفرها إلى المستحقين من فقراء المسلمين من أهل العلم والقرآن، سواء كانوا من أعراب أو من أندلسيين أو غيرهم وأمرنا حال وصوله، عليكم بتنبيه القضاة والحكام ومتولي الأوقاف هناك، بألا يتعللوا ،وألا ينتحلوا الأعذار إزاء توزيع المخصصات، ويجب إعطاء المستحقين من أعراب مدجرو الأندلسيين منها كما جاء أعلاه)(الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم23، صحيفة رقم121، الحكم رقم244).

من خلال هذا الأمر يتضح أن السلطة الحاكمة في مدينة في الفترة العثمانية كانت تشرف على اقتطاع الأراضي لسكان المدينة والوافدين عليها، وأوكلت مهمة تنفيذ قرارات الاقتطاع للقضاة

(مصطفى بن حموش، 2006م، ص.186)، ويبدو أن هذه الأراضي كانت تتوزع حول النواة القديمة للمدينة، وتشكلت بذلك ثلاثة تجمعات سكنية وهي:

أ. القصبة القديمة:

وهي وسط المدينة ومركزها وبها مسجد سيدي رمضان، وهي النواة الأولى للمدينة الإسلامية.

ويقول في ذلك حمدان بن عثمان خوجة: (والقصبة هي أيضا من الآثار القديمة، وكانت تتكون في ذلك الوقت من بضعة منازل تحيط بجامعها والمباني، وكان الخلاء يعقد فيه البدو والبرابرة أسواقهم...)(حمدان بن عثمان خوجه، 2006، ص.70).

ب. القصبة السفلى:

يطلق عليها كذلك اسم الوطأ لسهولة طوبوغرافيتها، عرفت هذه المنطقة توسع عمراني مع دخول المدينة تحت راية الدولة المرابطية، حيث أسس المسجد الجامع المرابطي(الجامع الكبير)، والأسوار التي تحيط به قد بنيت في تلك الفترة(حمدان بن عثمان خوجه، 2006، ص.70)، ولكنه لم يعرف توسعا كبيرا بسبب الهجمات البحرية التي كانت تتعرض لها المدينة خاصة من طرف النور مونديين على غرار جميع مدن ساحل المغرب الأوسط، ثم حروب بنو غانية والدولة الموحدية.

ومن خلال الوصف الذي قدمه عبد الواحد المراكشي في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد يبدو أن المدينة بقيت تتمركز في وسط الجبل المطل على الميناء (... ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر.. وتنسب إلى قوم لهم بنو مزغنة...) (عبد الواحد المراكشي، (د ت)، ص. 438). ثم تسوء الأوضاع من جديد في عهد الدولة الزيانية وصراعها مع الدولة الحفصية، ويمكن القول أن التوسع العمراني الكبير الذي عرفته المدينة في هذه المنطقة يعود إلى الفترة العثمانية وكذلك قدوم المجموعات الأندلسية. وقد كان لوجود الأطلال الرومانية فيها وطبيعة طبوغرافيتها السهلة أثره في امتداد العمران إليها قبل غيرها من المناطق. وما تتميز به المنطقة كذلك وجود الشبكة الشطرنجية من الشوارع والأنهج التي تعود إلى الفترة الرومانية، ورغم ما قدمته تلك الشبكة من سهولة لتعمير المنطقة فإن ملامحها قد اختفت تحت النسيج العضوي للفترة العثمانية.

ويبدو أن أول من استفاد من تخصيصات في هذه المنطقة هم الأندلسيين، وقد أكد ذلك مصطفى بن حموش من مقارنته لعدد الأوقاف في هذه المنطقة مع بقيت المناطق حيث ذكر أن 31.24 % مجموع الأوقاف تعود للأندلسيين في القصبة السفلى. ورغم اعتقادنا ببدء التعمير العثماني بها قبل غيرها من المناطق فإن موقعها الجذاب باعتباره مركز المدينة فيما بعد تكون وراء منافسة الأتراك وخاصة رياس البحر منهم لهؤلاء الأندلسيين، وتقهقر الوظيفة السكنية عن باقي الوظائف الحضرية بها(مصطفى بن حموش، 2000، ص240).

ومهما يكن من أمر فإن بصمات الأندلسيين بها وزيادة على هذا العدد من الأوقاف والملكيات الخاصة، يمكننا إدراكها من خلال بعض المباني العامة التي تحمل الأسماء الأندلسية، ويتعلق الأمر هنا بالثكنة التي تحمل اسم ثكنة أوسطة موسى وهو مهندس معماري مشهور آنذاك، وكذلك طبانة الأندلسيين التي أسست سنة (960هـ/ 1552م)، وتقع في الموقع المسمى قاع السور، وهدمت في الفترة الفرنسية.(مصطفى بن حموش، 2000، ص240)

وكانت هذه المنطقة كذلك محور حراك المدينة تشمل مساحة 1.1 هكتار وتضم المنشآت التالية: أسواق المدينة الرئيسية، والتي تقع بالقرب من سوق الصياغة، ومن قيسارية والبادستان (أسواق مخصصة)، وكذلك المساجد مثل جامع السيدة، والجامع الجديد، والجامع الكبير، بالإضافة إلى غالبية المراكز الإدارية مثل قصر الجنينة حيث كان الدايات يقيمون حتى سنة (1233هـ/1817م)، ثم قرر الداي علي خوجة نقل دار الإمارة إلى الجنوب الغربي للمدينة بسبب ضربات المدفعية المتكررة عليها من طرف الحملات العسكرية الأوروبية، ومن خلال هذا الموقع يمكن للداي مراقبة الحراك داخل المدينة.(اندري ريمون، 1991، ص.135).

ج . القصبة العليا (الجبل):

يمكن تقسيم هذه المنطقة إلى جهتين، إحداهما الناحية الجنوبية الشرقية والثانية الناحية الجنوبية الغربية، ففيما يخص الأولى فقد خصصت لإسكان الأتراك و الأندلسيين، وكذلك بعض السكان المحليين، وقد شيدت في هذه المنطقة عدة مساجد منها المالكية ومنها الحنفية، وذلك مراعاة لمذهب كل مجموعة بشرية، ويشير مصطفى بن حموش أن غالبية السكان في هذه المنطقة كانوا من الأندلسيين، فبالإضافة إلى العدد المعتبر من الأوقاف الذي يتعدى ما في المنطقتين الأخريين (41.24 %) تضم هذه المنطقة مركبا ثقافيا وتربويا خاصا بأبناء الجالية الأندلسية وهي زاوية الأندلسيين التي تأسست سنة (1094هـ/ 1639م) على أنقاض دار قديمة، و يبدوأن اختيار الموقع كان بدافع الكثافة العالية للأندلسيين في هذه المنطقة من المدينة.

أما الناحية الجنوبية الغربية فهي تقع أعلى حدود القصبة القديمة ولا تضم إلا 18.75 % من مجموع الأوقاف الأندلسية، ولعل الانحدار الشديد للمنطقة أهم سبب لتأخر جليا تعمير هذه الجهة من المدينة وقلة تواجد الأوقاف الأندلسية. وما يعزز تعمير هذه المنطقة من طرف الأندلسيين هو وجود مسجد الشاطبي نسبة إلى مدينة الشاطبة الأندلسية التي سقطت سنة (645هـ/ 1247م)(مصطفى بن حموش، 2000، ص.240).

إن أول ما نلاحظه من توزع المناطق الثلاث هو إحاطتها بالقصبة القديمة على شكل سوار أو هلال، وهذا ما يدفعنا إلى التأكيد على أن المحرك الرئيسي لنمو مدينة هو وصول الأندلسيين، كما أن

المساحة التي تتوزع عليها تلك المناطق تبين حجم الجالية التي أقامت بالمدينة، وباختصار فإن ذلك يقودنا إلى الاعتقاد أن جزائر بني مزغنة التي كانت بربرية قد أصبحت مدينة أندلسية يشكل السكان الأصليين فيها الأقلية، ولعل تسمية سكان المدينة باسم المور التي قد تكون تصغير لكلمة موريسكي هي في حد ذاتها دليل على تغلب العنصر الأندلسي، بالإضافة إلى التأثير العمراني الأندلسي واضح على عمران مدينة في الفترة العثمانية، ويؤكد هذا الكلام حمدان بن عثمان خوجة عند حديثه عن الأصول البشرية لسكان مدينة بقوله: (...تسكن الجزائر طبقات مختلفة من الناس، وكان سكانها في الأصل من العرب الذين فروا من إسبانيا عندما كان الإسبانيون يستعملون مضيق جبل طارق لاقتراف جريمة الإغراق....وإذن فإن جزءا كبيرا من سكان مدينة الجزائر مكونا من العرب والأتراك، والأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة...)(حمدان بن عثمان خوجه، 2006، ص.63).

- الخاتمة

من خلال هذه الورقة البحثية يمكن أن نستنتج مايلي:

- تقلبت مدينة الجزائر في الفترة الإسلامية في عدة دول وإمارات تأسست بالمغرب الإسلامي، ويعد هذا الحراك السياسي عاملا إيجابيا لتطور المدينة عمرانيا، خاصة في حالة السلم، إلا ما كان من حروب بين الدولة الموحدية وبنو غانية في القرن السابع للهجرة الثالث عشر للميلاد، هذا الصراع امتد إلى غاية صحراء نوميديا بالمغرب الأوسط وتسبب في تهديم العديد من المدن.

- تم تمصي مدينة الجزائر في العصر الوسيط في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد من قبل بلكين بن زيري وعلى عهد أبيع زيري بن مناد الصنهاجي أمير قبيلة صنهاجة.

- لعب ميناء مدينة الجزائر في العصر الوسيط دورا بارزا في التجارة المتوسطية وكان مطمعا لجميع الدويلات التي نشأت بالمغرب الأوسط، وهذا ما ذكرته المصادر الجغرافية.

- تأثرت مدينة الجزائر بالتاريخ السياسي للمغرب الإسلامي، ويبدو أنها كانت دائما وفي أغلب فتراتها تابعة لتلمسان قاعدة المغرب الأوسط خاصة في الفترة الموحديةوالزيانية.

- أصبحت مدينة الجزائر مع نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث قبلة للمجموعات البشرية المحملة بالتراكم الحضاري المكتسب من الحضارة الإسلامية في الأندلس أو في المدن المغربية خاصة مدينتي تلمسان وفاس، كما أصبحت مقصدا للعلماء وطلبة العلم هذا ما أعطاها صفة حاضرة المغرب الأوسط في العصر الحديث ليؤهلها أن تكون عاصمة الجزائر في الفترة العثمانية.

- استفادت مدينة الجزائر في الفترة العثمانية من الإنتاج الحضاري لمدن المغرب الإسلامي، ومن التراكم الحضاري الإسلامي في الأندلس، وترجم هذا التراكب خاصة في العمران والعمارة.

-من خلال الدراسة التخطيطية لمدينة الجزائر نلاحظ أنها تميزت بتصنيف أسواقها الرئيسية، وحسن ترتيبها، وقربها من المساجد، وبعدها عن المنازل، حيث بنيت هذه الأسواق في أسفل المدينة، لكي لا يستطيع الغراب التطلع و كشف أسرارها، كما كانت تبنى الأسواق أو تنصب في أحياء المدينة، و تسمى بالسويقات (جمع سويقة) مخصصة لسكان الأحياء.

- كما تتميزت مدينة الجزائر بأزقتهما الضيقة، ودروبها الملتوية، وقلة شرفاتها، وضيق فتحاتها، وندرة الفضاءات فيها، نتيجة لتدافع العمران وتراص البنيان، من بيوت ومساجد، وأسواق وفنادق، وحمامات وأفران، وزوايا.

- قائمة المصادر والمراجع:

1-قائمة المصادر:

1) ابن حوقل أبو القاسم،(1992م)،صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان.
2) ابن خلدون عبد الرحمن، (1421هـ / 2000م)،كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان.
3) ابن منظور جمال الدين، (1424هـ / 2003م)،لسان العرب، تحقيق عامر احمد حيدر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4) الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف، (دون تاريخ الطبع)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دار الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر.
5) البكري أبو عبيد، (1857م)،كتاب المسالك وممالك، تحقيق: ديسلان، الجزائر.
6) الجزائري محمد بن عبد القادر، (1903م)،تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر،الإسكندرية، مصر.
7) خوجه حمدان بن عثمان، (2006م)،المرآة، تحقيق وتعريب: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
8) شوفالييه كورين، (1991م)،الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510م-1541م)، ترجمة حمدان جمال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
9) المراكشي عبد الواحد، (دون تاريخ الطبع)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: محمد العريان، ط3.
10) المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد، (1877م)،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،مطبعة بريل، ليدن.
11) مقيدش محمود، (1988م)،نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: عليالزراوي ومحمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

12) المكناسي محمد بن عثمان،(1426هـ /2005م)،البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى من العدو الكافر، تحقيق: مليكة الزاهدي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
13) كربخالمارمول، (1989م)،إفريقيا، ترجمة محمد حجي، وآخرون، دار المعرفة للنشرو التوزيع، الرباط.
14) الوزان حسن عاش، (1983م)،وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

15) 2 -قائمة المراجع:
16) بن حموش مصطفى، (2006م)جوهر التمدن الإسلامي ط1 دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
17) بن حموش مصطفى، (2000م)،فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي.
18) بن حموش مصطفى، (1999م)،المدينة والسلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في عهد العثماني"، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.
19) الترعزيز سامح، (1989م)،الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1،دار النهضة العربية، بيروت.
20) حاجيات عبد الحميد، (1984م)، " امتداد نفوذ الحفصي إلى المغرب الأوسط"،في كتاب الجزائر في التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
21) حداد حليم ميشال، (1999م) "الجزائر"،موسوعة قصة وتاريخ الحضارة العربية بين الأمس واليوم، العدد (21، 22)،Édition Creps، بيروت، لبنان.
22) حليمي عبد القادر، (1972م)،مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830م،دار الفكر الإسلامي الجزائر.
23) ريمون اندري (1991م)،المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات ونشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
24) سعيدوني ناصر الدين، (2000م)،ورقات جزائرية،دراسات وأبحاث فيتاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
25) أرزقيشويتام، (2009م)،المجتمع الجزائري،وفعالياته في العهد العثماني (926-1246هـ/1519-1830م)، دار الكتاب العربي، الجزائر.
26) ضيف شوقي، (1995م)،عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر.
27) عبد الستار عثمان محمد، (1988م)،المدينة الإسلامية، عالم المعرفة.
28) عبد القادر نور الدين (1968م)،صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها على انتهاء العهد التركي، ط1، الجزائر.
29) المدني أحمد توفيق، (1968م)،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1429م-1792م)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
30) الميلي مبارك بن محمد، (2011م)،تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، دار الكتاب العربي، الجزائر.

31) 3-الرسائل الجامعية والمذكرات:
32) راجعي زكية، (2007م)،مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية جامعة الجزائر، معهد الآثار.
33) موشموش محمد، (2009م)،مساجد مدينة تنس، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر.
34) 4-الوثائق الأرشيفية:
35) الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم23، صحيفة رقم121، الحكم رقم244.
36) 5-قائمة المصادر باللغة الأعجمية:
37) –BERBRUGGER. A. (1960).Le peignon d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algérie. Alger.
38) De Fontaine De Resbecq.A. (1937).Alger et la côte D'Afrique. Gaume frères. Libraires.Rue du pot-de-fer-5, Paris.
39) DGRAMMONT .H. (1986).Quel est le lieu de la mort d'ROUDJ BARBEROUSSE ?. In Revue Africaine, N° : 22, Année 1878, office des publications universitaires. Alger.
40) –HAEDO F.D. (1986). Histoire des rois d'Alger. Traduite et annotée par, DE – DGRAMMONT.In Revue Africaine. N° : 24. Année 1880.Office des publications universitaires. Alger.